هل الفكرة الصهيونيّة موجودة في أدب كافكا؟

د. صالح الرزوق

في كتاب **واقعيّة بلا ضفاف** يحتفي روجيه غارودي بالأدب الكافكاوي، ويعتبره شهادةً واقعيّةً صارخة عن القلق الوجوديّ الحديث، شأنه في ذلك شأن رسوم پيكاسو وأشعار سان جون بيرس. ويرى جورج لوكاش، مؤلّف **معنى الواقعيّة المعاصرة**، أنّ كافكا يحقّق في أعماله إدراك الواقع[1]، وأنّ قلق كافكا هو التّجربة الّتي تُصوّرها حركةُ المحدثين بلا منازع[2]. ولم تُشرْ أيٌّ من الدراستين الرّائدتيْن السّابقتيْن إلى صهيونيّة كافكا من قريب أو من بعيد.

إنّ مسألة «صهيونيّة» كافكا أو عدم صهيونيّته مسألةٌ مقلقة ومحيّرة، وذلك للأسباب التالية:

أوّلاً ـ إن أعمال كافكا الضخمة مثل **القصر** و**المحاكمة** و**أمريكا** وأعماله الأخرى ـ القصص القصيرة ـ لا تقوم على فكرة لمّ الشتات أو الاندماج، وليستْ فيها أيّةُ إشارة إلى الأرض المقدّسة. إنّ أدب كافكا، على خلاف أعمال حاييم بوتوك وليون بوريس وهرمان ووك، لا يضمّ في طيّاته الهاجسَ بوحدة «الشعب اليهودي»؛ كما أنّ لغته لا تبتهل بورعٍ ديني لإلهِ بني إسرائيل.

إنّ ما تقدّمه كتاباتُ كافكا ـ والنّصوصُ الإبداعيّة منها حصراً ـ عن ضياع الإنسان المعاصر وعن قلقه وتأزّمه لا يختلف عمّا تحدّث عنه كثيرٌ من الأدباء المحدثين أمثال فوكنر، وپو، وجويس. ويعتبره النّاقدُ الأميركي ليسلي فيدلر في حديثه الممتع عن **الحبّ والموت في الرّواية الأمريكيّة** قمّة الاتّجاه الحديث، ويعتقد أنّ روايته **أمريكا** تنظر غرباً لا بعنوانها فقط وإنّما بحكايتها أيضاً[3]؛ أي أنّها لا تلتفتُ إلى الوراء لتنظر بانكسارٍ إلى الضياع في سيناء، بل تعالج انكسارَ المواطن ـ المفرد العادي واغترابه في خضمّ تناقضاتِ الحياة الغربيّة الحديثة الّتي سرقت من الإنسان طفولتَه الأولى وشاعريّة الإحساس بها.

وهذا يعني أنّ الحديث عن القلق الإنساني في أدب كافكا غيرُ مرتبطٍ بالضرورة بظروف يهود «الشتات» في أحيائهم الخاصّة (الغيتو).

ثانياً ـ إذا كانت أعمالُ كافكا الإبداعيّة ذات شموليّةٍ وعمقٍ إنسانيّيْن، فإنّ رسائله ومفكّراته ـ كما قدّمها صديقُهُ ماكس برود ـ تنمّ عن إيمانٍ عميق وثابت بالجانب الإنساني لا السّياسي من الفكرة الصهيونيّة. وإذا كان من الصّعب جدّاً الفصلُ بين النّاحيتيْن الإنسانيّة والسياسيّة في أيّة إيديولوجيا، إلاّ أنّ كافكا كان مصرّاً في الكثير من المواقف على فصل يهوديّته (وهذه ذاتُ اهتماماتٍ إنسانيّة كما يقول) عن صهيونيّته.

فهو يقول في رسالةٍ إلى أبيه منقولةٍ عن **كتاب كافكا**: «تاريخ اليهود يمتاز بطابع الحكاية والأسطورة الّتي يرميها الطّفل، فيما بعد، مع طفولته في قاع النّسيان». ويذكر في يومياته بتاريخ ١٩١٤: «ما الّذي يجمعني باليهود؟ لا شيء جماعي يربطني بنفسي. وإنّه لخيرٌ لي أن أقبعَ بهدوءٍ تامّ في زاوية من الزّوايا. وإنّي لفي غاية السّرور بكوني قادراً على التّنفّس[4]».

إلاّ أنّه يناقض نفسه بنفسه في رسالة بعثها من پراغ إلى صديقته فيليس بوير بتاريخ ٢٩ تموز ١٩١٦ يحثّها فيها على التطوّع في خدمات «بيت الشعب اليهودي» الّذي أسّسه سينغريد ليهمان. يقول لها في هذه الرّسالة: «أنا شديد اللّهفة لسماع خبر اشتراكك ومساهمتك». ولا يلبث أن يضيف متنصّلاً من ارتباطه بالفكرة الصيهونيّة: «ما يهمّني ـ ويهمّك أيضاً ـ ليس الصّهيونيّة بل ذاك الشيء تحديداً، وما يمكن أن يفضي إليه»[5].

فما هو ذاك الشيء الّذي يشير إليه كافكا؟

يقول في رسالة إلى صديقته مؤرّخة في ١١ أيلول ١٩١٦:

---

(١) لوكاش، جورج: **معنى الواقعيّة المعاصرة**، (ترجمة د. أمين العيوطي، دار المعارف، مصر، ١٩٧١)، ص ٤٣.

(٢) المرجع السّابق ص ٤٤.

(٣) Fiedler, Leslie A, **Love of Death in the American Novel**, (England: 1984), p. 492.

(٤) صلاح حاتم، «**أضواء على موقف كافكا من اليهوديّة والصهيونيّة**» ـ **مجلّة المعرفة**، عدد ٢٤١، ص ٤٤.

(٥) فرانز كافكا، «رسائل حول البيت اليهوديّ»، **مجلّة الكرمل**، عدد ٥، ١٩٨٢، ص ٢٩٧.

«العنصرُ الإنساني هو الأساس، العنصر الإنساني فقط. أرغب حقّاً في سماع المزيد عن ذلك»[٦].

أمّا عمّا يمكن أن تفضي إليه خدماتُ بيت الشعب اليهوديّ، فهذا ما يحدِّده مؤسِّسُهُ سينغريد ليهمان مؤلِّف **مفهوم الاستيطان اليهودي وبيت الشعب**. كان كافكا وكذلك صديقته فيليس يعرفان تمامَ المعرفة أنّ فكرة الصهيونيّة تُدرَّس في بيت الشعب اليهودي، كما أنّ فكرة الاستيطان تترعرع هناك. يقول في الرّسالة المؤرَّخة في ١١ أيلول ١٩١٦: «وبالمناسبة، فيما يتّصل بالمحاضرة، يبدو أنّكِ كنتِ محظوظة بصورة خاصّة؛ إذ إنّها عالجت المسألة الجذريّة الّتي لا سبيل إلى إبقائها في حالة سُبات، بل يجب أن تلتهب وتتوهّج مراراً، لتهزّ ركائز الصهيونيّة ذاتها»[٧].

وفي رسالة أخرى تاريخها ٢ آب ١٩١٦ يقول:

> الزّاوية الأدبيّة ـ وهي ليست كما يجب ـ تعكس جوّاً صهيونيّاً غربياً؛ ورغم ذلك، فإنّه لا حاجة بك للارتياب في «البيت اليهودي» من خلال الصهيونيّة، تلك الّتي لستِ تعرفينها بعدُ بصورة كافية. من خلال «البيت اليهودي» ـ الأكثر قرباً من قلبي ـ تتحرّك قوى أخرى وتمارس تأثيرها؛ وأمّا الصهيونيّة، اللّصيقة بمعظم يهود اليوم، فهي في حواشيها الخارجيّة على الأقلّ مدخلٌ إلى شيء أبعدَ وأكثرَ أهمّيّة[٨].

إنّ التردّد الّذي تعكسه المقتطفاتُ السابقة ليس إلّا جزءاً من ماهية كافكا كإنسان وكأديب. فهو يصرّ على الجانب الإنساني من المسألة، ويتنصّل من الصهيونيّة كفكرة سيّاسيّة؛ وهو يشيح عن اليهوديّة التقليديّة ويعتبرها مجرّد حكاياتٍ وأساطيرَ تليق بالأطفال، ولا يرى أواصر قويّةً تجمعه باليهود؛ ومع ذلك فإنّه يحثّ صديقته على تقديم خدماتها إلى «البيت اليهودي». وهو يبدو متردِّداً في أشياء عامّة أخرى مثل الزواج والنّشر.

غير أنّه لا مجال للتردُّد حين نقرأ رسالته إلى فيليس، وهي مؤرَّخة في ١٢ أيلول ١٩١٦، ففيها يقول:

> الرّابطة بين هذا كلّه وبين الصهيونيّة ـ وهي رابطة واردة عندي، لا عندك، بالضرورة ـ تكمن في حقيقة أنّ العمل في «البيت» يستمدّ من الصّهيونيّة منهجاً شابّاً نشطاً نشاطاً شابّاً في صورته العامّة، وحين تفشل الوسيلةُ الأخرى فهي تضيء الطموحاتِ القوميّة باستثارة الماضي السّالف المذهل ـ مع الإقرار بالقيود والحدود الّتي لا تستطيع الصهيونيّة بدونها أن تقوم. إنّ

(٦) المرجع السّابق، ص ٢٩٨.
(٧) المرجع السّابق.
(٨) المرجع السّابق.

نماذج من كافكا(*)

■ كُفَّ عن ذلك

في الصّباح الباكر جدّاً، حين كانت الشّوارعُ نظيفةً ومهجورة، كنتُ في طريقي إلى المحطّة. وحينما قارنتُ ساعتي بساعة البرج عرفت أنّ ساعتي متأخّرة أكثر ممّا توقّعت، وأنّ عليّ أن أغذّ السّير. وقد بعثت هزّةُ هذا الاكتشاف في نفسي الشكَّ بالطريق. فأنا لم أكن حتّى هذه اللّحظة على معرفة جيّدة بالبلدة؛ ولحسن الحظ كان ثمّة شرطي على مقربة منّي، فجريت إليه لاهثاً، وسألته عن الطّريق. فابتسم وقال: «أتسألني عن الطريق؟». قلت: «نعم، فأنا غير قادر على اكتشافه بنفسي».

قال: «كفَّ عن ذلك! كفَّ عن ذلك»، واستدار بلفتةٍ مفاجئة، مثل امرئٍ يرغب في مداراة ضحكته.

■ القرية المجاورة

اعتاد جدّي أن يقول: «إنّ الحياة قصيرة إلى حدٍّ مذهل». وأمّا بالنّسبة لي، وبعد تقليب النّظر في ما فات منها، فإنّ الحياة لتبدو مختَزَلة إلى حدّ أنّني أستوعبُ، بشقِّ النّفس، كيف يتأتّى لرجل شابّ أن ينطلق إلى القرية المجاورة دون أن يخاف (هذا إن تناسيتُ الحوادث) من أنّ ثمّةَ حياةً عاديّة سعيدة قد تنقضي قبل أن تُستكمل هذه الرّحلة.

■ بروميثيوس

هنالك أربعُ أساطير تتعلّق ببروميثيوس:

فحسب الأولى كان بروميثيوس مربوطاً إلى صخرة في الكوكاسوس لإفشائه أسرارَ الآلهة إلى بشر. فأرسلتِ الآلهة نسوراً تتغذّى على كبده، وكان هذا يُرمَّمُ باستمرار.

وحسب الأسطورة الثّانيّة، فإنّ بروميثيوس الّذي وخزه ألمُ المناقير الجارحة، ضغط نفسَه إلى الصّخرة بعمق، ثمّ بعمقٍ أشدَّ حتّى بات جزءاً منها.

(*) هذه القصص مأخوذة من كتاب: **The Penguin Complete Short Stories Of Franz Kafka**, (ed.) Nahum N. Glatzer, Penguin Books, England, 1983 وقد ترجمها د. صالح الرّزوق.

كيفيّة وصولك إلى اتفاق مع الصهيونيّة مسألةٌ خاصّة بك؛ أيُّ اتّفاق معها (واللامبالاة غير واردة) سوف يجلب لي السرور. . . ولكنْ إذا شعرتِ يوماً ما بأنّك صهيونيّة، وأدركتِ بالتّالي أنّني لست صهيونيّا ـ وهو إدراك قد ينبثق من تجربة وتدقيق ـ فإنّ الأمر لن يقلقني، ولا حاجة لأن يقلقك أنت؛ فالصهيونيّة ليست أمراً يفرّق أصحاب المقاصد الرّاسخة[9].

في هذا الديالوج الطويل نسبيّاً ـ وهو ما أرى فيه مونولوجاً له شكل الديالوج ـ يقطع كافكا حبالَ التفسير والتّأويل ويعلن على الملأ انفصاله عن الإيديولوجيا الصهيونيّة.

ثالثاً: يذهبُ بعضُ الباحثين في الأدب الكافكاوي إلى أنّ «ثيمات» أقاصيصه ورواياته تخدم الفكرة الصهيونيّة. ويتوسّلون إلى ذلك بحلّ رموز نصوصه بطريقةٍ حسابيّة بعيدةٍ كلَّ البعد عن التحليل الأدبي[10]. والحالُ أنّ «قصّة بنات آوى وعرب»[11] ليست بعيدة ـ ولاسيّما في الجانب الحواري منها ـ عن الجذور التاريخيّة المدفونة للصّراع العربي ـ الإسرائيلي. إلّا أنّها لا ترقى بأيّ حال من الأحوال إلى مستوى يفلسف القضيّة الصهيونيّة أو يبرمج عناصرَها وأبعادَها.

رابعاً: لا يمكن أن يُجعل من يهوديّة كافكا وحدها سبباً لنبش الرّموز الصهيونيّة في أدبه. وإنّه على الرّغم من صعوبة الفصل بين الدّوافع الإنسانيّة الظاهريّة لإنشاء البيت اليهودي، والدّوافع السياسيّة المحضة، فليس من حقّ أحد أن يزعم أنّ أدب كافكا أدبٌ صهيونيّ أو يبشّر بالصهيونيّة.

إنّ كاتب سيرة كافكا ومعدّ مؤلّفاته للنّشر بعد وفاته، أقصد صديقَ عمره ماكس برود، قد أضفى على كافكا بعضَ الملامح الصّهيونيّة. ولكنّ أحاديث كافكا الصريحة إلى صديقته فيليس بوير تنفي تورُّطَه بالحركة الصهيونيّة، ولا تنفي متابعته لأخبارها وعدم عدائه لها.

وفي كلّ الأحوال، فإنّ قراءة كافكا ـ وهو الكاتب الّذي تُرجم إلى العربيّة مراراً وتكراراً ـ أمرٌ ضروريّ؛ لا لأنّه من المحدثين الّذين استوعبوا فاجعة الفرد في قلب الحضارة المعاصرة واغترابه وانسحاقه، فحسب، ولكن لأنّه يتحدّث في مفكّراته ورسائله كذلك عن الفكرة الصهيونيّة الّتي عاش عصرَ انبثاقها وتطوُّرها. ونحن دائماً بحاجة لأن نعرف المزيد عن الآخر مثلما نحن بحاجة إلى معرفة أنفسنا.

(٩) المرجع السّابق، ص ٢٩٩.

(١٠) كاظم سعد الدين: «حول رموز كافكا الصهيونيّة»، مجلّة **الأقلام**، عدد ٦ تشرين الأوّل ١٩٧٤.

(١١) د. فيصل درّاج ومحمود موعد: «محاولة قراءة في الفكر السياسي لكافكا»، **الموقف الأدبي**، عدد ٩ حزيران ١٩٧٩.

وحسب الأسطورة الثّالثة، فإنّ خيانته قد تنوسِيَتْ عبرَ آلاف السّنين؛ نسيتها الآلهة، والنّسور، ونسيها هو بالذّات.

وحسب الأسطورة الرّابعة، فقد سئم النّاسُ جميعهم من هذه المسألة العديمة المعنى. لقد ضجرت الآلهة وضجرت النّسور واندمل الجرح على مضض.

بقيت هناك كتلةٌ من الصّخور المبهمة. حاولتِ الأسطورةُ أن تفكَّ عقدةَ الغموض. ومثلما جاءتْ من أسّ الحقيقة، فقد كان عليها أن تصير من جديد إلى لغز.

■ خرافة صغيرة

قال الجرذ أليس «في كلّ يوم يغدو العالم أصغر. كان في البداية كبيراً إلى درجة أنّني خفتُ، فرحت أركضُ وأركضُ، ولقد سُررت حينما رأيت، أخيراً، جدراناً على اليمين واليسار تلوح من بعيد. غير أنّ هذه الجدران الطّويلة مالبثت أن راحت تضيق بسرعة، إلى أن صرتُ إلى آخر قاعة، فرأيتُ في الزّاوية فخّاً وجدتني أندفعُ إليه».

قالت القطّة «أنت بحاجةٍ إلى تغيير اتّجاهك فحسب». ثمّ التَهَمَتْهُ.

■ المغادرة

أمرتُ بإحضار حصاني من الحظيرة. لكنّ الخادم لم يفهم أوامري. فذهبتُ بنفسي إلى الحظيرة، وأسرجتُ صهوةَ حصاني وامتطيته. وعن بُعد سمعتُ صوتَ بوق، فسألتُ الخادم عنه. ولكنّه لم يكنْ على علم بشيء ولم يسمع شيئاً. وعند البوّابة استوقفني وتساءل «إلى أين أنت ذاهب يا سيّدي ؟».

قلتُ «لا أعلم. إلى خارج هذا المكان، إلى خارج هذا المكان. إنّي ذاهبٌ إلى خارج هذا المكان ولا شيء آخر. هذه هي الطّريقة الوحيدة الّتي أبلغ بها هدفي».

سأل: «إذاً أنت تعرف مرماك؟»

أجبت: «نعم. لقد أخبرتك توّاً أنّني أزمع أن أكون خارج هذا المكان. ذلك هو هدفي».